كَـنْـزِي الثَّمِين / حَياةُ الْيَاقوت

أَجَلْ، أَعرِفُ تِلْكَ القِصَّةَ السَّخِيفَةَ الْـمُكَرَّرَةَ! فَتاةٌ فائِقَةُ الْـجَمالِ ذَاتُ وَجْهٍ مُسْتَدِيرٍ وَخَدَّيْنِ وَرْدِيَّيْنِ تَرْتَدِي الْحِجابَ، فَتَزْدَادُ جَمالاً، وَيُغَرِّدُ الْـكَوْنُ حَوْلَها، وَتَطيرُ الفَراشاتُ، وَتَحُطُّ الطُّيورُ عَلى كَتِفَيْها...شَيْءٌ مِثالِـيٌّ ، ولا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ أَبَـدًا!

-أنا، مَنْ أنا؟

-أنا الَّتي لا قِيمَةَ لِيْ دُونَ شَعْرِي، أَنا كُتْلَةُ القُبْحِ الْـمُتَوَّجَةُ بِشَعْرٍ فاتِنٍ، أنا الَّتي وُضِعَ كُلُّ جَمالِي في شَعْرِي. هَلْ تَعْرِفُونَ مَاذا يَعْني الْحِجَابُ لِيْ؟ يَعْني أَكْبَرَ كَارِثَةٍ في حَياتي. حَسَناً، اَلْـحِجَابُ لِلْجَمِيلاتِ فَـقَطْ !

لاَ بُدَّ مِنَ الْـحِفاظِ عَلى رَأْسِ مَالِي الْوَحِيدِ، كَنْزِي، تَاجِي، مِيزَتِي التَـنَّافُسِيَّـةِ. خِلالَ السَّنَتَيْنِ الأَخيرَتَيْنِ صَارَتْ عِنْدِي خِبْـرَةٌ تَراكُمِيَّـةٌ لا بَأْسَ بِها، أَرُدُّ بِهَا عَلَى جـمِيعِ أَنْوَاعِ الْـحُجَجِ الَّتي يُمْطِرونَني بِهَا. كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ حُجَّةٍ عَلَى وَرَقَـةٍ مُلَـوَّنَـةٍ، وأَحْتَفِظُ بِهَا في مَلَفٍّ خاصٍّ. وَقَرَّرْتُ هَذَا الأُسْبُوعَ أَنْ أُعَلِّقَ لَوْحَةً كَبِـيـرَةً في غُرْفَتي وَأُثَـبِّتَ عَلَيْها هَذِه الْقُصَاصَاتِ الْعَزِيزَةَ لِتَشُدَّ مِنْ أَزْرِي إِزاءَ حَرْبِهِمُ الشَّطُونِ!

حُجَجِي الْـمُدَجَّجَةُ جاهِزَةٌ وَأَسْلِحَتي في وَضْعِ التَّأَهُبِ.

ما أَجْمَلَ هَذا اليَوْمَ ! يالهَذَا الصَّباحِ السَّعِيدِ! لَقَدْ أُلْغِيتْ حِصَّةُ الرِّياضِيَّاتِ ؛ لِأَنَّ هُناك مُحَـاضَرَةً مُفاجِـئَـةً ؛ وَمُدِيرَةُ الْـمَـدْرَسَةِ اِخْتارَتْ صَفَّنا لِـحُضُورِهَا.

جَلَسَتْ امْرأَتانِ على الْـمِنَـصَّةِ، تَتَوَسَّطُهُما إِحْدى الْـمُعَلِّماتِ الَّتي رَحَّبَتْ بِالضَّيْفَةِ "جُوَيْرِيَةَ كَارْلوس" أَخَذَتِ الْـمُعَلِّمَةُ تُعَرِّفُ وَتُرَحِّبُ بِالضَّيْفَةِ الَّتي اعْتَـنَـقَتِ الإِسْلامَ مُنْذُ خَـمْسِ سَنَواتٍ، وَتُـثْنِي عَلَيْها. أَمْسَكَتْ جُوَيْرِيَّـةُ بِمُكَبِّرِ الصَّوْتِ وَبَدَأَتْ حَدِيثَها بِهَذِه الْعِبارَةِ: "شَعْرِي كانَ رَأْسَ مالِي، شَعْرِي كان كَنْزِي"... ما إِنْ سَمِعْتُ تِلْكَ الْعِبارَةَ حَتَّى انْفَجَرَ في دَاخِلِي احْتِجاجٌ شَدِيدٌ!

فأَنا الَّتي أَقولُ : إِنَّ شَعْرِي رَأْسُ مَالِي! كَيْفَ سَـرَقَتْ هَذِه الْـمَرْأَةُ كَلامِي؟!

تابَعَتْ كَلامَها: "مُـنْـذُ خَـمْسِ سَنواتٍ كُنْتُ أَتقاضى دَخْلاً سَنَوِيّاً يَصِلُ إلى عَشَراتِ الْآلافِ مِنَ الدُّولاَرَاتِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ عارِضَةً."

ثارَ في نَفْسِي سُؤَالٌ : كَيْفَ يُمْكِنُ لَها أَنْ تَعْمَلَ عارِضةً ؟

أَخَذْتُ وَزَمِيلاتِي نَتَأَمَّلُها. إِنَّها امْرَأَةٌ عَادِيَّـةٌ، بَلْ قَدْ تَكُونُ أَقْـرَبَ إلى البَشاعَـةِ.

وَتابَعَتْ حَديثَها: " بَعْدَ فَشِلي في الدِّراسَةِ، عَمِلْتُ مُسَوِّقَـةً لِبَعْضِ مُنْتَجاتِ الشَّعْرِ، ولِأَنَّ شَعْرِي كَانَ لاَمِعاً وَصِحِّيّاً وَطَوِيلاً تَـبَنَّـتْـني إِحْدَى الْوِكَالاتِ، وَمَضَيْتُ في هَذَا الطَّرِيقِ، فَاسْتَخْدَمَتِ الْوِكالَةُ شَعْرِي في كُلِّ وَسَائِلِ إِعلانِها وَ دِعَايَاتِها..."

ثُمَّ اسْتَرْسَلَتْ في الْكَلامِ عَنْ بِداياتِ دُخولِها في الْإِسْلامِ قَائِـلَـةً: "كُـنْتُ عَلَى الْـمَحَكِّ ، شَعَرْتُ بِأَنَّ شَعْرِيَ الْـجَمِيلَ هُو الَّذي كانَ يَحْجُبُني عَنِ الله ، وَكَأَنَّه ابْتَلاني بِهذِه النِّعْمَةِ كي يـُخَيِّـرَني ؛أَ أُحِبُّ شَعْرِي أَكْثَرَ أَمْ أُحِبُّ دِينَ الله؟!"

"دُخُولي في الْإِسْلامِ ؛ كَانَ يَعْنِي أَنَّ حَياتِيَ كُلَّها سَوْفَ تَـتَغَـيَّـرُ! وَبِتَغْطِيَتي لِشَعْري سَأَخْسَرُ حَياتِي، أَخْسَرُ مَوْرِدَ رِزْقِيَ الأَسَاسِيَّ ، وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذي يُحَدِّدُ قِيمَتي. لَكِن؛{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ}"

أَخَذَ الْـحَرَجُ يَتَصَاعَدُ في نَفْسِي، وَصِرْتُ أَشْعُرُ بِوَخْزٍ في أُذُنَـيَّ وَوَجْنَـتَيَّ؛ كِدْتُ أُقْسِمُ بِأَنِّي أنا الْـمَعْنِيَّـةُ بِهَذه النَّدْوَةِ، وَأَنَّ هَذِه الإِنْسانَـةَ جَاءَتْ في زِيارَةٍ لِبَلادِنا خِصِّيصاً مِنْ أَجْلِي. "رَأْسُ مالِي عَلاقَتِي بِالله ، كَنْزِي هُوَ تَضْحِيَتِي مِنْ أَجْلِهِ " ، هَذا مَاخَتَمَتْ بِهِ جُوَيْرِيَّـةُ كَلامَها ؛ وَهَزَزْتُ رَأْسِي بِحَماسَةٍ ...

وَهَأنا أَعُودُ إِلى البَيْتِ، فأَنْظُرُ إِلى الْـمِرْآةِ، وَأَهُزُّ رَأْسِي بِحَماسَـةٍ ؛ ثُمَّ أَسْحَبُ حِجَابًا أَلُفُّهُ عَلَى رَأْسِي، وَأُطَالِعُ كَنْزِيَ الْمَلْفُوفَ بِالْقُماشِ...أُطالِعُ رَأْسَ مَالِي ؛ وَقَدْ حَوَّلْتُهُ إِلى اسْتِثْمارٍ بَعِيدِ الْـمَدَى، إِلى سِلْعَةٍ غَالِيَةٍ بِعْتُهَالله..وَتَظْهَرُصُورَتي في الْـمِرْآةِ أَكْـثَـرَجَـمَالاً... فَأَبْتَسِمُ وَأَبْتَسِمُ بِحَماسَةٍ...لِأَنَّ نُورِيَ قَدِ اكْتَمَل...